مطرانية الروم الأرثوذكس في بيروت

Orthodox Archdiocese of Beirut

الرسالة

(أعمال الرسل ١: ١–٨)

إني قد أنشأتُ الكلامَ الأوَّلَ يا ثاوفيلُس في جميعِ الأمورِ التي ابتدأ يسوعُ يعمَلُها ويعلِّمُ بها* إلى اليومِ الذي صعِدَ فيهِ من بعدِ أن أوصَى بالروحِ القُدُسِ الرُّسلَ الذينَ اصطفاهُم* الذينَ أراهمُ أيضًا نفسَهُ حيًّا بعد تألُّمِهِ ببراهينَ كثيرةٍ وهو يتراءَى لهم مدَّةَ أربعينَ يومًا ويُكلِّمُهم بما يختصُّ بملكوتِ الله* وفيما هو مجتمِعٌ معَهُم أوصاهُم أنْ لا تَبرحوا مِن أورشليمَ بل انتَظِروا موعِدَ الآبِ الذي سمِعتُموهُ مني* فإنَّ يوحنا عَمَّدَ بالماءِ وأمَّا أنتم فستُعمَّدونَ بالروحِ القدسِ لا بعدَ هذهِ الأيامِ بكثير* فسألهُ المجتمعونَ قائلينَ يا ربُّ أفي هذا الزمانِ تردُّ المُلْكَ إلى إسرائيل* فقال لهم ليسَ لكم أن تعرِفوا الأزمنةَ أو الأوقاتَ التي جعلها الآبُ في سلطانهِ* لكنَّكم ستنالون قوَّةً بحلولِ الروحِ القدسِ عليكم

خدمة الهجمة

«عيد الأعياد وموسم المواسم»، هكذا تُسمي الكنيسة المقدسة عيد الفصح، عيد قيامة المخلص من بين الأموات. فالقيامة هي الركيزة الأساسية لإيماننا المسيحي، حتى ان الرسول بولس يقول: «إنْ لم يكن المسيحُ قد قامَ فباطِلَةٌ كِرازتُنا وباطِلٌ أيضاً إيمانُكم» (١كور١٥: ١٤). انطلاقاً من مركزية القيامة الإيمانية فإن الفصح هو قلب السنة الطقسية ومحورها. الدورة الطقسية السنوية الكنسيَّة تنطلق من الفصح لتعود إلى الفصح، كما ان الدور الطقسي الأسبوعي ينطلق من الأحد – يوم القيامة – ليعود إلى الأحد الذي يلي. ونرتل في كل أحد في آخر صلاة السحر «اليوم صار الخلاص للعالم فلنسبِّح الذي قام من القبر عنصر حياتنا...»».

الإيمان بقيامة المسيح عبَّرت الكنيسة عنه طقوسياً يوم الفِصح من خلال خدمة الهجمة التي تشكل الجزء الأول من صلاة سَحر العيد. فالطقوس في الليتورجيا الكنسيَّة هدفها أن تنقل للمؤمن الحدَث الخلاصي الذي تمّمه الرب، وتضعه أمامنا لكي نحياه الآن وهنا. في المقابل، متى اشتركنا بكل جوارحنا في إحياء هذا الطقس نقول للرب إننا نقبل هذا الخلاص ونؤمن انه هو المخلِّص الأوحد.

تُقام هذه الخدمة سَحرَ الأحد باكراً جداً، توافقاً مع النص الإنجيلي الذي نقرأه فيها عندما أتت النسوة حاملات الطيب ليطيّبن جسد المدفون: «وباكراً جداً في أولِ الأسبوعِ أتينَ إلى القبرِ إذ طلعتِ الشمسُ» (مر ١٦:٢). يأتي المؤمنون إلى الكنيسة ويبدأ المرنمون إنشاد القانون (تسعة مقاطع تسمّى أودية، وكل مقطع من عدَّة طروباريات) الذي كنا أنشدناه في جناز المسيح، وذلك لأن سبيلنا إلى القيامة يمر حتماً بالآلام الخلاصية. نرتل «إني أسبِّح دفنك وأنظِّم لك نشائد التسبيح، يا مَن بدفنه فتح لي مداخل الحياة وبموته أمات الموت والجحيم» (الأودية الأولى).

الإنشاد يتم والأضواء خافتة في مبنى الكنيسة. بعدها يقف الكاهن في الباب الملوكي للهيكل لابساً حلَّة كهنوتية بيضاء وحاملاً شمعة ويدعو المؤمنين ليضيئوا شموعهم منها قائلاً: «هلمّوا خذوا نوراً من النور الذي لا يغرب ومجّدوا المسيح الناهض من بين الأموات». نور الشموع هو رمز

العدد ٢٠٠٦/١٧

الأحد ٢٣ نيسان

الفصح المقدس

المسيح قام... حقاً قام

وتكونونَ لي شُهودًا في أورشليمَ وفي جميعِ اليهوديَّةِ والسامرةِ وإلى أقصى الأرض.

الإنجيل

(يوحنا ١: ١-١٧)

في البدءِ كان الكلمةُ والكلمةُ كان عند الله وإلهًا كان الكلمة* هذا كان في البدءِ عند الله* كلٌّ بهِ كان، وبغيرهِ لم يكن شيءٌ مما كُوِّن* بهِ كانتِ الحياة والحياةُ كانت نورَ الناس* والنورُ في الظلمة يُضيءُ والظلمةُ لم تدركْهُ* كان إنسانٌ مُرْسَلٌ من الله اسمُهُ يوحنا* هذا جاءَ للشهادة ليشهدَ للنور. لكي يؤمنَ الكلُّ بواسطتِهِ* لم يكنْ هو النور بل كان ليشهدَ للنور* كان النورُ الحقيقيُّ الذي يُنيرُ كلَّ إنسانٍ آتٍ إلى العالمِ* في العالمِ كان والعالمُ بهِ كُوِّنَ والعالمُ لم يعرفْهُ* إلى خاصَّتهِ أتى وخاصّتُه لم تقبَلْهُ* فأمَّا كلُّ الذين قبِلوه فأعطاهم سلطانًا أن يكونوا أولادًا لله الذين يؤمنون باسمِهِ* الذين لا من دمٍ ولا من مشيئةِ لحمٍ ولا من مشيئةِ رجلٍ لكنْ منَ الله وُلدوا* والكلمةُ صار جسدًا وحلَّ فينا (وقد أبصرْنا مجدَهُ مجدَ وحيدٍ من الآب) مملوءًا نِعمةً وحقًّا* ويوحنا شهِد

للقيامة البازغة من القبر، به نعلن انتصار الرب على الظلمة، ونعبِّر عن إبادة الليل الذي يرمز إلى الوجه المعتم، الجحيمي، للوجود. لكن قيامة المسيح سوف تكون بلا معنى إن لم يشرق نوره الإلهي في نفس الوقت فينا وبيننا، وإن لم نصبح نحن أنواراً مشعة أمام غيرنا بواسطة أعمالنا. لا نستحق أن نحتفل بقيامة المسيح إن لم ينتصر النور الذي جلبه لنا المخلص على ظلمة خطايانا.

بعد إضاءة الشموع يخرج الجميع في زياح إلى خارج الكنيسة مثل النسوة حاملات الطيب الذاهبات سَحَراً جداً إلى القبر، ومثل العذارى العاقلات (متى ٢٥:١-١٣) المستعدات للقاء العريس نقول للرب إننا مستعدون للقائه قائماً من بين الأموات وندخله إلى خدر قلوبنا. ننطلق مرنمين «لقيامتك أيها المسيح مخلّصنا، الملائكة في السماء يمجدون، فأهّلنا نحن الذين على الأرض أيضاً أن نمجدك بقلوب نقيَّة»، وطالبين منه أن ينير أذهاننا وقلوبنا لكي نستطيع نحن البشر أن نستوعب سر قيامته من بين الأموات.

يُغلق باب الكنيسة، باب القبر، بعد خروج الجميع من الكنيسة، ويبدأ الكاهن بتلاوة الفصل الإنجيلي (مر ١٦: ١-٨) الذي يتحدَّث عن ذهاب حاملات الطيب إلى القبر وظهور الملاك مبشِّراً إياهنّ بالقيامة. بعدها ينشد الجميع نشيد النصر: «المسيح قام من بين الأموات ووطئ الموت بالموت ووهب الحياة للذين في القبور»، فيما تُقرع أجراس الكنيسة فرحاً معلنة القيامة. نرتل «المسيح قام» باللحن الخامس السريع، لحن الفرح، بعد أن كان اللحن السادس، لحن الحزن، يطغى على الأسبوع العظيم.

بعد الطلبة السلامية الكبرى يتوجَّه الكاهن نحو باب الكنيسة المغلق، باب القبر، ويقرعه بقوة صارخاً ثلاث مرات: «ارفعوا أيها الرؤساء (رؤساء الجحيم) أبوابكم وارتفعي أيتها الأبواب الدهرية ليدخل ملك المجد». يُفتح باب الكنيسة رمزاً لفتح أبواب القبر وتحطم أبواب الجحيم. يُفتح الباب كما دُحرج الحجر عن باب القبر، فيصبح باب القبر أيضاً باب الفردوس المستعاد، باب الكنيسة، باب الملكوت الذي فتحه لنا المسيح من جديد. يدخل الجميع إلى الكنيسة المضاءة مع المسيح من الجحيم إلى الفردوس، ونعبر من الموت إلى الحياة.

عادة قرع الأبواب كما نمارسها حالياً أتت من خدمة تكريس الكنائس (القرن السادس) عندما كان المطران يقف أمام باب الكنيسة الجديدة حاملاً بعضاً من عظام القديسين (الذخائر) ويقرع الباب قائلاً: «ارفعوا أيها الرؤسا ء أبوابكم...». ثم يدخل ليضع هذه البقايا في المائدة المقدسة.

ندخل الكنيسة ونرى الثريات تتأرجح وهذا رمز للزلزلة التي حصلت عندما تدحرج الحجر عن باب القبر ويبدأ ترتيل قانون الفصح «اليوم يوم القيامة» في مقابل قانون الجناز الذي رُتِّل قبل الهجمة. نلاحظ أيضاً ان أبواب الهيكل مفتوحة وتبقى كذلك حتى عشيَّة الأحد الجديد وذلك رمزاً لتحطيم الرب لكل الحواجز بين الأرض والسماء التي أقامها الشرير أمام البشر ليمنعهم من دخول الفردوس.

في نهاية القداس يبارك الكاهن البيض المسلوق. البيض يرمز إلى القيامة، إلى الحياة الجديدة المنبعثة من القبر الفارغ. فكما يخرج الصوص حياً من البيضة هكذا يخرج يسوع من القبر ناهضاً وقد كان فيه قبلاً ميتاً بالجسد. «يفاقس» الجميع بالبيض وهم يقولون: «المسيح قام، حقاً قام». وهذه العبارة نرددها

لـهُ وصرخ قـائـلاً هـذا هـو الـذي قـلتُ عـنـهُ إن الـذي يأتي بعدي صار قبلي لأنَّهُ مُتَقَدِّمي* ومن مِلئه نحن كُلُّنا أخذنا ونعمةً عوضَ نـعـمـة* لأن الـنـامـوسَ بموسى أُعطي وأمَّا النعمةُ والـحقُّ فـبـيسوعَ المسيحِ حصلا.

تأمل

... إنهض يا آدم لنرحل من هـنـا. قـبلاً نفيتك من الـفـردوس الأرضـي، والآن أعيدك لا إلى ذلك الفردوس بل إلى العرش السماوي. آنـذاك مـنـعـت عـنك عـود الـحـيـاة (تك ٣:٢٢)، لكني الآن أتحد بك تماماً، أنا الحياة نفسها. قبلاً أمرتُ الشاروبيم بحراستك كعبد والآن أقـود الـسـارافـيـم لـلـسـجـود لك كـإلـه. لـقـد اختفيت قبلاً من أمام الله لأنك كنتَ عريـانـاً، لكنّك أُهِّلت الآن لأن تـخـفـي في داخلك الله نفسه عرياناً. ولذلك انهضوا لنرحل من هنا من الموت إلى الحياة، من الفساد إلى عدم الفساد، مـن الـظـلـمـة إلـى الـنـور الأبـدي، مـن الـوجـع إلـى الحرّية، من سجن الجحيم إلى أورشليم السماويّة، من الـقـيـود إلى الراحة، مـن الـعـبـوديـة إلـى نـعـيـم الفردوس، من الأرض إلى السماء.

من أجل هذا مات المسيح طيلة فترة الفصح حتى عيد الصعود بدلاً من التحيات اليومية.

أحد الفصح

القيامة مدخلنا إلى لاهوت المسيح. هذا يعلنه واضعو الترتيب الليتورجيّ حين يوصون بقراءة نص مستمدّ من الإصحاح الأول من بشارة يوحنا في قداس عيد الفصح العظيم المقدّس، نص يستهلّه الإنجيلي بتأكيد ألوهيّة الكلمة: «في البدءِ كانَ الكلمةُ، والكلمةُ كان عند الله وإلهاً كان الكلمة» (يو١:١). لقد برهن يسوع الناصري، عبر قيامته من بين الأموات في اليوم الثالث، أنّ ما كان يقوم به قبل موته حين كان ينادي الآب السماوي «أبّا»، أي ما يوازي لفظة «بابا» في لغتنا العاميّة، إنّما يعبِّر عن حقيقة لا يخالطها زيف، أي العلاقة الفريدة التي تجمعه بأبيه. فارتباط الإبن بأبيه السماوي ارتباط وثيق العرى، حتى أنّهما يسكنان الواحد في الآخر: «أنا في الآبِ والآبُ فيَّ» (يو ١٤:١٠). هذا يُستدل منه على أنّ الحياة الإلهية كانت تحتدم في يسوع حتى بعد موته، في هذا الجسم الذي رُفع على الصليب ثم سُجّي في قبر، بحيث أنّ القيامة أتت تعبيراً عن هذا الإحتدام، «إذ لم يكن ممكناً أن يُضبط عنصر الحياة في اللحد» (ليتورجيا القديس باسيليوس الكبير)، وذلك رغم فعليّة الموت الحاصل على الصليب وحقيقيّته. هذا هو السر العظيم الذي حقّقه يسوع في صلبه وقيامته، إذ أعلن بالموت أنّه إنسان حتى آخر حدود الإنسانيّة، وبيّن بالقيامة أنّه إله لا ينقص في شيء عن أبيه السماوي من حيث كثافة الألوهة، بل يستمدّ منه ملء اللاهوت موحّداً إيّاه ببشريّته، إذ في يسوع «يحلُّ كلُّ مِلءِ اللاهوتِ جسديّاً» (كو ٢:٩).

إن الإعتراف بألوهة الكلمة، في مستهلّ الإنجيل، يتّخذ، بالنسبة إلى الإنجيلي يوحنا، تعبيراً كثيفاً عبر تأكيده أنّ الكلمة كان عند الله في البدء (يو ١:٢)، ما يستتبع بالضرورة أنّه كان معه أيضاً في لحظة الخلق، بحيث أنّ الخليقة بأسرها تضحي من صنع الكلمة على قدر ما هي من صنع الله الآب: «كُلُّ شيءٍ به كان وبغيره لم يكنْ شيءٌ مِمَّا كُوِّن» (يو ١:٣). هذا يذكر، طبعاً، بما ورد عن الحكمة في كتب العهد القديم المتأخرة، إذ تظهر شريكةً لله في الخلق: «لمَّا ثبَّتَ السمواتِ كنتُ هناكَ أنا. لمَّا رسمَ دائرةً على وجهِ الغَمرِ... كنتُ عندَهُ صانعاً» (أم ٨:٢٧-٣٠). التطابق بين يسوع وحكمة الله الذي يشير إليه إنجيل يوحنا، في إصحاحه الأول، على نحو خفر تؤكّده قرائن من الأناجيل الأخرى. ففيما نقرأ في إنجيل متى، مثلاً، أنّ يسوع، على غرار الحكمة في العهد القديم، يُرسل أنبياء وحكماء وكتبة (متى ٢٣:٣٤)، ينسب إنجيل لوقا هذا الإرسال إلى الحكمة صراحةً: «لذلكَ أيضاً قالت حكمةُ اللهِ إني أُرسلُ إليهم أنبياء ورُسلاً» (لو١١: ٤٩). يُستدلّ من هذا أنّ التقليد المسيحي الأوّل لم ينحصر في استخدام صورة المسيح، الملك اليهوديّ المنتظر، للتعبير عن هويّة يسوع الناصريّ، بل لجأ أيضاً إلى صور أخرى من العهد القديم، من بينها صورة الحكمة.

غير أنّ المعنى الأخير لصفة «الخالق»، التي يضفيها الإصحاح الأوّل من إنجيل يوحنا على يسوع بوصفه كلمة الله الذي به كُوِّن كل شيء، هذا المعنى يكمن في أنّ «الخلق» هو السمة الأبرز التي تطلق على الله دون سواه في العهد القديم: «في البَدءِ خلقَ اللهُ السمواتِ والأرضَ» (تك ١:١). فما يشكّل خصوصيَّة إله العهد القديم، إذا جاز التعبير هو كونه خالقاً إلى جانب

وقام. لكي يصيرَ ربَّ الأحياء والأموات (رو٩:١٤). انهضوا إذاً لنرحل من هنا. إن الآب السماوي ينتظر بشوق الخروف الضال. الملائكة التسعة والتسعون (متى ١٢:١٨) ينتظرون شريكهم آدم: متى يقوم، متى ينهض ويعود إلى الله. العرش الشاروبيمي جاهز. الذين سوف يرفعونك يتسارعون معجلين. خدر العرس مهيّأ ومائدة العيد مفروشة (رؤ ٩:١٩، لو ١٦:١٤). قد فُتحت خزائن الخيرات الأبدية. وحضر ملكوت السموات الذي منذ إنشاء العالم (متى ٣٤:٢٥). خيرات لم ترها عين ولا سمعت بها أذن تنتظر الانسان (١كور ٩:٢).

هذا وما شابهه قاله الرب. وللحال نهض آدم المتحد به وحوّاء معهما. «وقام أيضاً معهم عدد كبير من أجساد الصدّيقين الذين رقدوا منذ الدهر» (متى ٥٢:٢٧)، كارزين بقيامة المسيح ذات الثلاثة الأيام. فلنتقبّلها ونعانقها نحن المؤمنين بكلّ فرح معيّدين وراقصين مع الملائكة ورؤساء الملائكة ممجّدين المسيح الذي أقامنا من الفساد الذي يليق به المجد والقوة مع الآب الذي لا يموت والروح المساوي له في الجوهر، الصالح والصانع الحياة، إلى دهر الداهرين، آمين.

القديس أبيفانيوس القبرصي

كونه مخلِّصاً: «أنا أنا الرَّبُّ وليسَ غيري مُخلِّصٌ» (اش١١:٤٣). واللافت أن كلا الصفتين تسبغهما مقدّمة إنجيل يوحنا على الكلمة، يسوع المسيح. فهو إلى جانب كونه شريكاً في الخلق مع أبيه، يشكّل الشخصية المركزيّة التي بواسطتها يتحقّق الخلاص لمن يؤمنون به. ويعبّر يوحنا، في مقدّمة إنجيله، عن هذا الخلاص مستخدماً صورتين: الصورة الأولى هي الولادة الجديدة التي تشير، بلا أدنى شك، إلى المعموديّة: «أمَّا كُلُّ الذينَ قَبِلوه فأعطاهم سُلطاناً أن يصيروا أولادَ اللهِ... الذين وُلدوا ليسَ من دم ولا من مشيئةِ جسدٍ ولا من مشيئةِ رجُلٍ بل من الله» (يو ١٢:١–١٣). أمَّا الصورة الثانية فهي فكرة النعمة والحقّ اللذين يتحقّقان بيسوع المسيح، وذلك بخلاف ناموس العهد القديم الذي أُعطي بواسطة موسى (يو ١٧:١). والملاحظ أنّ الإنجيلي يوحنا يشدِّد على مركزيَّة دور يسوع في إغداق هذه الهبات الخلاصيَّة على المؤمنين باسمه. فإنّه هو من يعطيهم سلطاناً أن يصيروا أولاداً لله، وهو نفسه المستودع الذي من ملئه تفيض النعمة ويتفجّر الحقّ.

إنّ كلّ ما سبق ذكره عن الكلمة بوصفه مخلصاً إنّما يفترض التجسّد: «والكلمةُ صارَ جسداً وحلَّ بيننا» (يو ١٤:١). فمقدّمة إنجيل يوحنا لا تكتفي بالتشديد على ألوهة الكلمة، بل تؤكّد أيضاً حقيقة صيرورته إنساناً. كلمة «جسد»، هنا، يجب ألاّ تُفهم على خلفيّة الفلسفة اليونانيّة الأفلاطونية التي تجنح إلى إقامة فصل بين النفس، أي الجزء غير المنظور من الكيان الإنساني، والجسد، أي الجزء المنظور، بل انطلاقاً من الفكر العبري السامي الذي يستخدم عبارة «جسد» للدلالة على الكيان البشريّ ككل بشقّيه المنظور وغير المنظور. هذا هو الإيمان الذي دافع عنه آباء الكنيسة بشراسة بين القرنين الخامس والثامن، أي من المجمع المسكوني الثالث (٤٣١) إلى المجمع المسكوني السابع (٧٨٧)، أنّ الكلمة الإلهي صار بتجسده إنساناً حقيقياً، لا شبه إنسان، بمعنى أنّه يجمع في ذاته كلّ خواص الذات الإنسانيّة، لا البشرة فحسب، بل العقل والإرادة والفعل والوعي أيضاً. غير أنّ الكلمة، بعد تجسّده، أي بعد صيرورته إنساناً حقيقياً يشبه البشر في كلّ شيء ولا يختلف عنهم إلاّ في إعراضه عن الخطيئة، يبقى «ابناً وحيداً من الآب». فتجسّده لا يمسّ بنوّته للآب مقدار ذرّة، بل يؤهّله أن ينقل مفاعيل هذه البنوّة، أي نعمة التبنّي والنعم الأخرى التي يكتنزها كيانه الإلهيّ، إلى البشر لأنّه متّحد بهم من حيث أنه إنسان كامل. يسوع، إذاً، كيان مزدوج فريد، لكونه يتّصل بأبيه من جهة الألوهة ويتّصل بالبشر من جهة الناسوت، ما يجعله حلقة الوصل بين السماء والأرض، بين الإلهيّ والإنساني. وهو يحمل في بشريّته مجد الله، ما يحدو بالإنجيلي يوحنا إلى القول إنّنا «أبصرنا» مجده، أي أنّ مجد الله (وكلمة «مجد» تشير في اللغات الأصليّة إلى حضور الله بكثافة وثقل) يصبح منظوراً بفضل التجسّد. لقد نظر تلاميذ يسوع وصحبه إلى معلّمهم، فرأوا الله، ولا سيّما بعدما استعلن مجد الله، أي حضوره، على نحو دفّاق في جسد هذا المعلّم حين اخترق حجب الموت وعاد إلى الحياة من رحم القبر الفارغ: «الذي رآني فقد رأى الآبَ» (يو ٩:١٤). إنّ قيامة يسوع تجعل الله حقيقةً «متجسّدة» أمام نواظرنا وفي حياتنا.

بالامكان الإطلاع على النشرة أسبوعيًا على صفحة الإنترنت:

www.quartos.org.lb